

مكيال واحد لو تعلمون

بقلم : عبد الآخر حماد

أثار موقف الإدارة الأمريكية من الأزمة الكورية الشمالية لدى الكثيرين قدراً كبيراً من الاستغراب والدهشة وذلك عند مقارنته بموقفها من القضية العراقية ، فهي في الحالة الكورية تتمتع بأعلى قدر من ضبط النفس ؛ومن الواضح أنها لا تنوي اللجوء إلى الخيار العسكري ضد كوريا الشمالية ،حتى إنه حين لمح وزير الدفاع الأمريكي مجرد تلميح إلى إمكانية استخدام القوة ضد كوريا الشمالية -وذلك عندما أعلن أن بلاده قادرة على خوض الحرب على جبهتين في آن واحد -فإن الإدارة الأمريكية سارعت إلى تصحيح الوضع بما ينفي خيار الحرب تماماً ؛حيث أعلن وزير الخارجية الأميركي (كولن باول) أن بلاده لا تعتزم في الوقت الحالي شن حرب على كوريا الشمالية، وأنها مستعدة لانتظار شهور لمعرفة ما إذا كانت الدبلوماسية قادرة على إقناع (بيونغ يانغ) بالتخلي عن برامجها النووية، بل صرح الرئيس الأميركي بأن الولايات المتحدة لا تنوي على الإطلاق مهاجمة كوريا الشمالية، وأن الأزمة مع (بيونغ يانغ) يمكن تسويتها بطريقة سلمية ودبلوماسية.

أما في الشأن العراقي فإن الاستعداد للحرب -حتى ساعة كتابة هذه السطور -قائم على قدم وساق رغم كل التنازلات التي قدمها النظام العراقي ،ورغم استجابته الكاملة للمطالب الأمريكية بدءاً من قبول عودة المفتشين بلا شرط ولا قيد ،وانتهاءً بموافقتهم -بل بطلبه- أن يأتي ضباط من المخابرات المركزية الأمريكية ليرشدوا فرق التفتيش على ما تعتقد أمريكا أنه أماكن يخبئ فيها العراق أسلحته ،ومروراً بالموافقة على تفتيش القصور الرئاسية وتقديمه لتقارير مفصلة بلغت آلاف الصفحات حول برامج تسليحه ،ثم الموافقة على استجواب العلماء العراقيين ذوي الصلة ببرامج التسليح العراقي ،ثم عدم الممانعة في استجوابهم خارج العراق ،وقائمة المطالب الأمريكية لا تنتهي .

وحين سئل بوش عن الفرق بين حالي العراق وكوريا الشمالية أجاب بإجابة لا معنى لها حيث قال : ((إن المشكلة الكورية الشمالية سياسية، أما المشكلة العراقية فعسكرية)).

أما الإجابة الصحيحة عن هذا التساؤل فإنها لا تحتاج عندنا لكثير بيان ،فالكل يعلم أن المشكلة ليست في امتلاك العراق لما يسمى بأسلحة الدمار لشامل ،ففضلاً عن أن لجان التفتيش لم تستطع حتى الآن إثبات امتلاكه لتلك الأسلحة ،فإننا نعلم أن هناك دولاً كثيرة تملك مثل تلك الأسلحة ،وها هي الدولة العبرية تمتلك السلاح النووي ،ومع ذلك لا يجرؤ أحد على مجرد توجيه اللوم إليها ،كما أننا لسنا من السذاجة بحيث نصدق أن إسقاط صدام هو هدف أمريكا من الحرب ؛فلو كانت أمريكا تريد التخلص منه لفعلت ذلك منذ حرب الخليج الثانية

إذن ما الفرق بين حالي كوريا والعراق ؟

قد يكون من الفروق المهمة بين حالة العراق وحالة كوريا ما ذكره بعض المحللين من أن حول كوريا الشمالية دولاً قوية لا توافق أمريكا على شن حرب عليها ،كالصين واليابان ،وحتى كوريا الجنوبية العدو التقليدي لكوريا الشمالية لا ترضى بتلك الحرب ،بينما تقف الأنظمة العربية عاجزة لا تملك دفعا لما يمكن أن يجلب بالعراق ،بل إنها لا تملك لنفسها شيئاً فيما إذا قررت أمريكا أن تدور عليها بعد انتهائها من موضوع العراق ،ولذا نجد كثيراً من تلك الأنظمة يتسابق في تقديم فروض الولاء والطاعة ،وكل أنواع المساعدة للأمريكان ،وأحسنهم حالاً من يعلن في الظاهر عدم موافقته على ضرب العراق ،بينما قد يكون له في الباطن موقف خلاف ذلك .

وقد يكون من الفروق المهمة أيضاً امتلاك العراق لثاني أكبر مخزون نفطي في العالم بعد السعودية ،ولا شك أن أمريكا ترغب في وضع يدها على هذا الاحتياطي الضخم ، وقد قالت إحدى الصحف الفرنسية إن جورج بوش سيسيل لعبه على سبعة ملايين برميل من النفط يمكن إنتاجها يومياً من العراق ،لتقليل الاعتماد على النفط السعودي .

وقد يكون من الفروق أيضاً رغبة أمريكا في إعادة صياغة المنطقة وتقسيمها بما يتوافق مع مصالحها وبما يحقق أمن دولة اليهود في فلسطين ،بالقضاء على أي قوة عربية يمكن أن تشكل في يوم من الأيام خطراً عليها ،خصوصاً إذا صح ما يتوقعه البعض من أن أمريكا ربما

تعتمد إلى ضم العراق أو جزء منه إلى الأردن تحت حكم الهاشميين، ثم تجعل الكيان الجديد وطناً بديلاً للفلسطينيين بحيث تخلو كل الأراضي الفلسطينية لليهود الملاحين .

الفارق الجوهرى

قد يكون ذلك كله صحيحاً، لكن ينبغي أن لا يغيب عنا الفارق الجوهرى بين حالة كوريا وحالة العراق، وهو أن العراق جزء من أرض الإسلام، وهو الدين الذي تعده أمريكا عدوها الأول، كما أعلن ذلك منذ سنوات رمزي كلارك محامى الشيخ عمر عبد الرحمن ووزير العدل الأمريكى السابق، وإن كانت تغطي عداوتها له بشعار تخدع به المغفلين من أبناء هذه الأمة تسميه الحرب على الإرهاب، بينما هي فى الحقيقة تحارب الإسلام، وتعمل بكل السبل على إضعاف العالم الإسلامى وتمزيقه، وإخضاعه للنموذج الغربى فى ظل سياسة (الأمركة) المسماة بالعولمة .

إن هذا الذى نقوله ليس رجماً بالغيب، وإنما هو قول يستند إلى حقائق القرآن العظيم الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقد كشف لنا العليم الخبير فى كتابه الكريم عما تحمله قلوب أهل الكفر من حقد على الإسلام وأهله، وأنه لا يرضيهم إلا أن ينسلخ المسلمون- كل المسلمين- من دينهم، قال تعالى: (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) (البقرة: 217)

فإن المقصود من الآية الكريمة كما يذكر الألوسى تحذير المؤمنين بإخبارهم بدوام عداوة الكفار لهم والمعنى ((لا يزالون يعادونكم لكي يردوكم عن دينكم))(1). ويقول الأستاذ سيد قطب عند حديثه عن هذه الآية :

((وهذا التقرير الصادق من العليم الخبير يكشف عن الإصرار الخبيث على الشر، وعلى فتنة المسلمين عن دينهم بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم، وهو الهدف الذى لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة فى كل أرض وفى كل جيل... إن وجود الإسلام بذاته هو غيظ ورعب لأعداء هذا الدين... وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته، ولكن

الهدف يظل ثابتاً أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا ، وكلما انكسر في يدهم سلاح انتضوا سلاحاً غيره ... والخبر الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام وينبها إلى الخطر ويدعوها إلى الصبر على الحرب وإلا فهي خسارة الدنيا والآخرة ...))(2) .

كما أن العليم الخبير قد أخبرنا خبراً صادقاً لا شك فيه ولا امتراء بأن دأب الكافرين أنهم في حال قوتهم وظهورهم على المسلمين لا يرعون فيهم عهداً ولا ذمة ؛ كما قال تعالى : (كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاّ ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون) التوبة :8

إن هذا النص الكريم ليس مجرد إخبار عن موقف تاريخي خاص بمشركي العرب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم - وإن كان في الأصل نازلاً بشأنهم - وإنما هو بيان لحقيقة ثابتة ، وهي أن أهل الكفر في كل زمان ومكان لا يعمدون إلى مصالح المسلمين والوفاء بعهودهم معهم إلا حال ضعفهم وقدرة المسلمين عليهم ، أما في حال قوتهم وغلبتهم - كما هو حال أمريكا الآن - فإنهم لا يحترمون عهداً ولا ميثاقاً ، ولا يعرفون إلا منطق البغي ولغة القوة ، وإن تلك الحقيقة التي أشارت إليها الآية الكريمة لم تكن حالة وقتية طارئة بل هي كما يقول صاحب الظلال : ((الحالة الدائمة الطبيعية الحتمية ، حيثما وجد مؤمنون يدينون بالعبودية لله وحده ، ومشركون أو ملحدون يدينون بالعبودية لغير الله في كل مكان وزمان))(3).

ولا يقلل من صحة هذا الذي نقوله عدم كون النظام العراقي نظاماً إسلامياً ، فما كانت أمريكا لتعير اهتماماً لمن تعتبرهم أحجاراً على رقعة الشطرنج تحركهم كيف شاءت ، أما الذي يخيف الكافرين ويجعلهم يسعون سعياً حثيثاً من أجل إذلال العالم الإسلامي وإخضاعه فهو قوة الشعوب التي هي في جملتها شعوب مسلمة ، وإن كان إسلامها مشوباً بدخن كثير أو قليل ، فهم يتخوفون دوماً من أن ترجع تلك الشعوب إلى دينها ، وتعرف حقيقته من كونه دين العزة والجهاد ، ولذا فإن من أهم أهدافهم التحكم في مصائر بلاد

(2) في ظلال القرآن (227/1-228) .

(3) في ظلال القرآن : (1610/3) .

المسلمين وإبعاد المسلمين عن دينهم الصحيح لأنهم يعلمون أن في عودة المسلمين إلى دينهم أكبر الخطر عليهم وعلى مخططاتهم الإجرامية .

كما أننا لا يمكننا استبعاد البعد الأصولي البروتستانتي في هذه المسألة، فإن الأصوليين البروتستانت، وخصوصاً أتباع الكنيسة الإنجيلية، يعتقدون بجمية وقوع معركة (هرمجدون) في وادي مجيدو بفلسطين، وأنه ببداية هذه المعركة فإن المسيح سيرفع المسيحيين المخلصين إلى السحاب، حتى لا يضاروا من تلك الحرب، فإذا انتهت الحرب المدمرة عاد بهم إلى مقر مملكته بالقدس ليقتل ثلثي اليهود، ويدخل الثلث الباقي في المسيحية، ولكن لا بد قبل موقعة (هرمجدون) من تجمع اليهود إلى فلسطين وإقامة دولتهم الكبرى بها، وبناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، ولعل هذا ما يفسر نشأة الصهيونية المسيحية قبل الصهيونية اليهودية، فقد كانت العقيدة اليهودية حتى القرن التاسع عشر كما يذكر الدكتور عبد الوهاب المسيري (صاحب موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية) تحرم العودة إلى (أرض الميعاد) قبل قدوم مسيحيهم المنتظر (4)، لكن الصهاينة البروتستانت استغلوا بعض الشخصيات اليهودية من أجل العمل لإقامة دولة لليهود في فلسطين، بهدف الإسراع في عودة المسيح حسب اعتقادهم، وكان من أهم تلك الشخصيات هيرتزل الذي ترأس المؤتمر الصهيوني الأول في بازل بسويسرا عام 1897، وهو المؤتمر الذي تأسست به الحركة الصهيونية اليهودية، والذي قاطعته أغلب الجماعات اليهودية لمخالفته معتقداتهم، بينما خطب فيه القس البروتستانتي وليام هشرل، مطالباً اليهود بالاستجابة لدعوة الرب -بزعمه- للعودة إلى وطنهم في الأرض المقدسة .

وهيرتزل نفسه لم يكن يهودياً متديناً، حتى إن حاخاماً يهودياً رفض أن يجري له مراسم الزواج وفق الديانة اليهودية؛ لأنه رآه غير ملتزم بالشريعة اليهودية، لكنه استطاع بعد ذلك إقناع الكثيرين من اليهود بالعمل من خلال الحركة الصهيونية ثم تحول الأمر عند

(4) وهم في الحقيقة ينتظرون المسيح الدجال الذي أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بخروجه آخر الزمان وأنه يتبعه اليهود ويقاتلهم المسلمون . [يراجع الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية (30/2)] .

الكثيرين منهم إلى عقيدة دينية لا تمانع في إقامة الدولة وبناء الهيكل قبل قدوم المسيا أو المسيح الذي ينتظرونه .

وتشير كثير من الكتابات الغربية إلى اقتناع كثير من الساسة الأمريكيان بهذه النظرية الأصولية في وجوب مساعدة اليهود من أجل التعجيل بهرمجدون ومن ثم عودة المسيح، وقد قال ريجان من قبل : ((إن هذا الجيل بالتحديد هو الذي الجيل الذي سيري هرمجدون))(5).

كما أن واقع حال الرئيس الحالي وإدارته وما يتناثر من تصريحاتهم يشير إلى وجود البعد الديني في سياساتهم تجاه بلاد المسلمين، ويبين أن سياساتهم العدائية تجاه الأمة الإسلامية ليست وليدة أحداث الحادي عشر من سبتمبر كما يظن بعض الواهمين، وإن كانت تلك الأحداث قد استُغلت في الإسراع بتنفيذ تلك الحرب الصليبية الجديدة كما وصفها بوش بنفسه، في واحدة من سقطات لسانه التي أظهر الله بها شيئاً من مكنونات صدور القوم، (قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) آل عمران: 118.

وعلى ذلك فرمما كان تفكير من يدقون طبول الحرب في أمريكا منصباً على ما سلفت الإشارة إليه من إعادة ترتيب المنطقة بحيث يمكن اليهود من إقامة هيكلهم المزعوم، من أجل الإسراع بمجيء الأيام الأخيرة كما يسمونها، وبهذا يختلط البعد الديني مع البعد السياسي والاقتصادي في تلك القضية الشائكة .

إن مقصودنا من ذلك كله أن نشير إلى أنه وإن كان الظاهر من حال أمريكا أنها تكييل بمكياين، فإننا عند التأمل سنكتشف أنها تكييل بمكياين واحد، تتوخى فيه منفعتها ومصالحها، ويظهر فيه دائماً حقدتها على الإسلام وأهله، وتبقى مصيبتنا الكبرى نحن المسلمين في حكام ساسوا الناس بغير شرع الله، واختاروا سياسات تضر بمصالح الأمة وثوابتها؛ كما هو حال تلك الدولة الخليجية التي تستعد لاستقبال أعداد من القوات الأمريكية ربما تفوق عدد سكانها من أجل قتال بلد عربي أهله مسلمون.

(5) النبوءة والساسة للكاتب الأمريكية جريس هالسل ص: 66] ترجمة محمد السماك .